

المكانة الادبية لفيرجيل
شاعر اللاتينية
كما نراها نحن وكما يراها النقاد

للدكتور حسن عون

لم يحظ بالشهرة أحد من شعراء العالم قديماً بمثل ما حظى هوميروس ، شاعر اليونانية ، وفيرجيل شاعر اللاتينية . هذه حقيقة ينبغي أن تقدم بها ابحاث ، وتقرر أولاً قبل أن نبحث عن مصدرها وتعرض لمناقشتها . بل أننا لا نبالغ حين نقول ان شهرة فيرجيل بالنسبة لشاعر اليونانية كانت أبعد مدى وأعماق أثراً : أبعد مدى لأنها لم تجعل منه شاعراً مستازاً فقط ولا شاعراً انسانياً فقط بل جعلته نبياً من أنبياء الشعر يتحدث عن المستقبل فلا تكذبه الاحداث كما سيتبين ذلك بعد قليل ، وأعماق أثراً لان كل من جاء بعده من شعراء اللاتينية حتى العصور الوسطى ، بل وكثيراً من شعراء العصر الحديث يعتبرون تلامذة له وعالة عليه .

كانت شهرة فيرجيل مبكرة ، اذ أنه بدأ يسترعى الانظار وهو لا يزال تلميذاً في مدرسة Grémone ، ثم انه حين أحس ، وهو الفقير الثناء والرقيق الحال ، بأن المنطقة كلها التي نشأ فيها تضيق بشهرته وبما كان يمثي به نفسه من مكانة أدبية رفيعة ، لم يتردد في الذهاب الى روما ، عاصمة العلم والسياسة والادب .

وهناك في هذه المدينة الصاخبة وفي ذلك الوسط الزاخر بأعلام الادب والشعر لم تتعثر شهرة فيرجيل بالرغم من ضعة أصله ومن صغر سنه ، بل درس على أكبر الاساتذة واتصل برجال الحكم وبرز في ميادين الادب ولم يمض عليه سوى بضع سنوات حتى وقف في مسرح العاصمة ينشد الناس من شعره فصفت له روما بأسرها ونادى به الشعب زعيم الشعراء وهو لم يتجاوز نيفاً وعشرين سنة (١)»

(١) هذا ما ذكره المؤرخ اللاتيني P. Cornelius Tacitus في مقدمة كتابه - Dialogus de oratoribus . وكذلك Suétone. Donat في الفصل ١٣ من كتابه عن فيرجيل . وكذلك Servius في الفصل ٦ من تعليقه على Buccoliques

ومنذ تلك اللظة يتسابق رجال السياسة في التقرب اليه وفي بذل ما يستطيعون من وعود وأموال لكي يعتنق مبادئهم ويستخدم داعية من دعائهم • وأخيرا نجح أنصار الامبراطور أوغسطس في أن يجتذبه اليهم ويكلوا اليه رسالة روما السياسية والاجتماعية يقف نفسه عليها ويسخر ملكاته الشعرية في الدعوة اليها •

أصبح فيرجيل بعد أن احتضنته السياسة شاعر الشعب الروماني بأسره يقول فتردد صدى قوله مدن ايطاليا كلها ، ويدعو الى الاصلاح المنشود فيتغلغل صدى تلك الدعوة في أعماق الريف ، الا أنه قد أصبح أيضا منذ ذلك الحين لا يعمل الا بوحى من السياسة وبالهام من رجال الحكم ، فنراه ينظم ديوانه Bucoliques بوحى من Pollion وديوانه Georgiques بوحى من Maecenas وأخيرا ملحمة « Eneide » بوحى من الامبراطور أوغسطس « ١ » •

وفوق ذلك فقد بلغ من أثر السياسة عليه أن استباح لنفسه التكرار لبعض أصدقائه الذين آزره في أوقات محنته « ٢ » • ولنترك هذه المسألة جانبا وندعها لمن يريد أن يدرس أثر السياسة في الأدب وما ينبغي أن يكون عليه موقف الاديب بالنسبة لرجال الحكم •

لم نعثر في تاريخ الادب اللاتيني ولا فيما تركه الكتاب اللاتينيون على نص يفهم منه أن واحدا من الشعراء المعاصرين لفيرجيل كان ينافسه الشهرة

(١) يروى أن Pollion اقترح على فيرجيل ان ينظم ديوانا في الشعر خاصا بحياة الرعاة على نمط ديوان شاعر يوناني من جزيرة صقلية يسمى Théocrite وأن Maecenas اقترح عليه نظم ديوان خاص باعمال الفلاحة ، وان اوغسطس اقترح عليه نظم ملحمة في تاريخ الشعب الروماني فلبى الشاعر كل ما طلب •

(٢) اشارة الى Cor. Gallus الذي كان من اصدقاء فيرجيل حينما تولى هذا ولاية مصر ونزع الى الاستقلال بها غضب عليه اوغسطس فانتحر وكان فيرجيل قد كتب ثناء عن هذا الصديق في ديوان Georgiques ولكن بعد هذه الحوادث حذف من الديوان هذا الجزء واستبدله بموضوع آخر

أو يساميه في المكانة الادبية ؛ ومعنى هذا أن الكل كان يعترف له بالاولوية في الشعر ويسلم له أمر الزعامة فيه . ولذا فقد استمر طول حياته محاطا بهالة من الاحترام وموضعا للتقدير من جميع الطبقات : أما رجال السياسة فكانوا يرون فيه الداعية المسموع الكلمة ، وأما رجال الادب فكانوا يرون فيه الشاعر الانساني الفنان ، وأما طبقات الشعب فكانوا يرون فيه الشاعر القروى المؤمن . ولقد ظهر أثر ذلك كله بعد الموت مباشرة ؛ ولعل أول مظهر من ذلك هو ما أبداه الامبراطور أوغسطس من الحرص الشديد على نشر ديوان Enclide دون أن تضاف اليه كلمة ولا أن يغير فيه موضع بيت من الشعر مهما كان فيه من اضطراب ومهما بدا عليه من نقص في بعض الايات ؛ وذلك بالرغم من وصية الشاعر نفسه بأن يحرق هذا الديوان بعد موته «١» . ولم يكد فيرجيل يتوارى عن الانظار حتى أصبحت دواوينه الثلاثة ميدانا للبحث بين العلماء والادباء . وموضوعا للدرس بين الاساتذة والطلاب فالادباء اتخذوها مثلا أعلى لفن الشعر ينهجون نهجها في الافكار والمعاني ، ويقلدونها في كثير من الالفاظ والتراكيب «٢» . والنحاة اتخذوها مثلا أعلى في ثناء اللغة وجمال الاسلوب يننون كثيرا من قواعدهم عليها ويستمدون أمثلتهم منها . وأما الطلاب فقد اتخذوها مثلا أعلى كذلك في سهولة المعاني مع فخامة الالفاظ ، وفي عذوبة الموسيقى مع صحة الاوزان الشعرية يحفظون منها ما يقوم لسانهم . ثم يعيدون من محفوظهم في مختلف المناسبات ما يقوى حجتهم ، ويزين أحاديثهم . بل أن هذا النزوع الى تقدير الآثار الشعرية لفيرجيل قد ظهرت بوادره وهو لا يزال حيا ، اذ قررت دراسة ما ظهر منها ضمن ما كان يدرس في المدارس للطلاب «٣» .

- (١) انظر ما كتبه Suetone-Donat في الفصل ٣٩ من كتابه عن فيرجيل ، وكذلك ما كتبه Servius عن حياة فيرجيل ، ثم ما كتبه في هذا الموضوع Fredric Plessis في كتابه La poésie latine ص ٢١٩ - ٢٢٠ .
(٢) كثير هم الشعراء المقلدون لفيرجيل ، وهم يختلفون في درجات التقليد ولعل اخصهم في هذا هو الشاعر Silius Italicus الذي عاش في أيام حكم الإباطرة وقد لعب دورا سياسيا هاما تحت حكم Vespasien Néron
(٣) انظر Histoire illustrée de la lit.- latine للاستاذ Jules Humbert ص ٢٠٢

وهكذا أصبحت آثار فيرجيل قرآنا بالنسبة للغة اللاتينية ، اذ أنها بواسطة ما كان يحفظ منها منعت هذه اللغة من الانحلال ، وحفظت لها سلامتها وبقائها بالرغم مما أصاب الشعب الرومانى من تدهور واضمحلال ومما تعرضت له اللغة نفسها من ضعف نتيجة للصراع اللغوى مع الشعوب الأخرى .

ولقد بقيت هذه الآثار محفوظة بما فيها من حيوية وبما لها من مكانة أدبية أثناء العصور الوسطى ، بل لقد زاد من هذا ذلك المظهر الروحى الذى بدأ الناس يحيطون به فيرجيل ، فكانوا اذا أرادوا الاقدام على أمر أو اكتشاف ما يخبئه الغد لجئوا الى دواوين فيرجيل ففتحوا منها صفحة عن طريق الصدفة ثم قرؤوا أول بيت من الشعر ، وما يدل عليه ذلك البيت كان بالنسبة لما يستوضحونه بشيرا أو نذيرا . وهذا المعنى هو ما يشير اليه ذلك الاصطلاح : *sortes virgilianae* الحظوظ أو الاقدار الفيرجيلية » .

ولقد دعم المسيحيون فى العصور الوسطى هذا المعنى حينما جعلوا من فيرجيل شاعرا متنبئا ، اذ أنه بشر بالمسيح قبل مولده ، ذلك أن الشاعر فى القصيدة الرابعة من ديوانه *Bucoliques* الذى نظمها فيما بين سنة ٤٢ و ٣٧ قبل الميلاد ، يتحدث عن مولد طفل يحكم الدنيا ويعيد الى العالم السلام ويكون عهده ايزانا بعودة العدل الى الارض ، والعصر الذهبى الى الانسانية كلها . ولم يعرف على وجه التحقيق حتى الآن ماذا كان يقصده الشاعر من ذلك الطفل ، وقد اختلفت وجهة نظر العلماء والباحثين فى ذلك المقصود ولكن يعيننا أن نسجل هنا وجهة نظر المسيحيين لنرى الى أى حد كان فيرجيل يتمتع بالشهرة أثناء العصور الوسطى ، والمسيحيون كثرة لا قلة ، ولم يكن ذلك فى الغرب وحده ولكن فى الشرق أيضا .

ثم اذا أشرفنا على العصور الحديثة رأينا الشاعر ينعم بمثل ما كان ينعم به من شهرة ومكانة أدبية فى العصور القديمة والوسطى ، ورأينا آثاره

الادبية كذلك تحتفظ بما كان لها قديما من حيوية وعظمة وتقدير ، فها هو
ذا دانت Dante « ١ » صاحب المسرحية الالهية — La Divine Comédie
يقتفى أثر فيرجيل في ميدان الشعر ويتخذهُ أستاذا في تخير الالفاظ ، وسعة
الخيال ، واتقان الصور الفنية ، ثم أنه في مسرحيته هذه يتخذهُ هاديا ومرشدا
في زيارته للدار الآخرة كما تصورها ، وهو في تصويره لها يستمد ، من غير
شك ، كثيرا من أفكاره وأوصافه من تلك الصورة الرائعة التي رسمها
للجحيم فيرجيل في جزء من أجزاء ملحمة Encide .

وكلما تغلغلنا في العصور الحديثة مقتربين من القرن العشرين وجدنا
مكانة الشاعر اللاتيني تسمو ، ومجده الادبي يزيد مع الزمن ، فيتجه الغرب
الى العناية به ودرس شعره ، ويتسابق الناس على حفظ آثاره والاقتباس
منها ، ولا توجد جامعة من جامعات الغرب دون أن يكون فيرجيل هو أساس
الدراسات القديمة فيها ، ولا يكاد يوجد مثقف من مثقفي الغرب دون أن
يكون قد عرف شيئا عن فيرجيل وعن آثاره الشعرية .

وهكذا أصبح فيرجيل هدفا لافانوع عديدة من الدراسات ، ومنهلا
للمثقفين من العلماء والادباء فالمؤرخون ومن يعينهم أمر الدين عند القدماء
يجدون في آثاره دائرة معارف ، والادباء الكلاسيكيون يتلمسون فيها المثل
الاعلى لجمال الذوق ، وحسن السبك ، وعذوبة المعنى ، ونبل الافكار ،
والرومانطيقيون يدهشهم ما يجدونه فيها من تلك العاطفة الحزينة ، ومن
ذلك الخيال الحالم ، ومن هذا الحب العنيف للطبيعة وما تتجمل به من
سهول وغابات وأنهار وجبال .

(١) يعتبر Dante شاعر إيطاليا العظيم في اثناء القرن الرابع عشر ، ولد
سنة ١٢٦٥ ومات سنة ١٣٢١ م . واثره الادبي الخالد هي تلك المسرحية
الالهية Divine Comédie وهي تنقسم الى ثلاثة فصول : الاول يتناول
وصف الجحيم والثاني يتناول وصف الاعراف او دار التطهير من الخطايا
والثالث يتناول وصف الفردوس .

وان الاحتفال الذي أقيم في سنة ١٩٣٠ ميلادية لمناسبة مرور ألفى عام على مولد فيرجيل ليعتبر دليلا بينا على أن شهرة الشاعر اللاتيني لم تنقطع ، وأن عناية الناس به وبآثاره لم تضعف ولقد صورته الأدباء في هذا الحفل كالعنوان البارز للادب اللاتيني ، والممثل الاول للفكرة اللاتينية ، والمعبّر الصادق عن روح الشعب اللاتيني ، ولذا فقد كان هذا الحفل عيدا لللاتينية كلها ممثلة في شاعرها الكبير «١» .

وهناك ظاهرة أخرى بعيدة الدلالة على ما كان يحفظه الشعب الروماني لفيرجيل من مكانة أدبية سامية وما يكنه لى من قداسة واحترام ، ذلك هو موقف الرومانيين منه بعد الموت ونظرتهم الى مقبرته ، فتبد كادوا يتخذونه الها تقرب له القرايين ، ويجعلون من قبره معبدا تهرع اليه الناس بالدعوات . مكانة لم تتوفر لشاعر من قبله ، ومنزلة لا تقل عن منازل القديسين . وهامى ذى أمارات ذلك التقدير :

مات فيرجيل في Brindes ونقل رفاة الى نابل ، ثم دفن في ضواحي هذه المدينة على الطريق الى Pouzzoles سنة ١٩ قبل الميلاد ، وفي القرن الاول بعد الميلاد نقرأ وصفا لهذه المقبرة في شعر Statius حيث يقول انها ليست مقبرة ولكنها معبد «٢» .

وهناك شاعر لاتيني آخر ، هو silius italicus كان كثيرا ما يفخر بأن المقبرة التي تضم رفات فيرجيل تقع في ممتلكاته ويذهب في تقديسه لهذا الرفات الى درجة أن يقدم لهذه المقبرة في كل سنة قربانا «٣» .

هذه صورة عاجلة لمكانة فيرجيل الادبية أثناء حياته وبعد موته ، وعرض سريع لما حظيت به آثاره من العناية والدرس في العصور القديمة ، والوسطى

(١) انظر Histore illustrée de la litt. latine مؤلفه Jules Humbert ص ٢٠٢

(٢) البيت ٥٤ من المقطوعة الرابعة في الكتاب الرابع من ديوانه « شعر المناسبات » : Silves, IV, 4, 54

(٣) J. Humbert - Hist. illustrée de la lit. latine, page 170 et page 297.

والجسدية وقيل نجاشينا فيهما - ما نملن - الامالة بضرب الامثلة وذكر
الشموص واكتفينا بمررد الحقائق مجردة عن الاطناب •

وبعد فما هو سر تلك العظمة ؟ وبأى الوسائل استطاع فيرجيل أن يكون
لنفسه هذه المكانة الادبية الخالدة ؟ وما هو مصدر ذلك التقدير الذى ناله
من طبقات الشعب الرومانى على اختلافها : تقدير من الطبقة الحاكمة ،
تقدير من الطبقة المثقفة ، تقدير من الطبقات البسيطة ما بين زراع ، وصناع
وملاك صغار ؟ هذه هى الاسئلة التى يعيننا أن نجيب عنها الآن ، وقد كنا فى
أثناء اطلاعنا على الآثار اللاتينية لا نملك الا الدهشة لما نجده فى ميادين
الثقافة اللاتينية من اجماع على تقدير فيرجيل والاشادة باسمه ، والتغنى
بآثاره • وفى الاجابة عن هذه الاسئلة سنحاول جهدنا أن نعبر عن احساسنا
الخاص - وتقديرنا الشخصى للذين - نبجح لانفسنا أن نقول - اكتسبناهما
نتيجة اطلاع عشر سنوات متوالية لا فى دائرة الادب اللاتينى وحده ، ولكن
فى دائرة المعارف اللاتينية كاهما من لغة وميثولوجيا ، وفلسفة ، وتاريخ ،
وقانون •

لهم يكن فيرجيل ملهما ، ولا نبيا كما ذهب بعض المسيحيين فى العصور
الوسطى ، وأمر الطفل الذى تحدث عنه لا يعدو أن يكون جولة من جولات
الخيال عند الشعراء ، وما ينبغى للبحث العلمى أو النقد الادبى أن يتقيد
بمثل هذا ، ولا أن تكون مكانة الشاعر الادبية مستمدة من مثل ذلك
الخيال • ولكنها النزعة الدينية عند رجال الدين الذين يريدون أن يروا
أثرها فى كل شيء وأن يتبنوا من أجلها كل عظيم •

لهم يكن فيرجيل أيضا مفطورا على قول الشعر حتى يغدو ما لكا لزامه
متصرفا فى أمره ، ولكن كان هو نفسه ملكا للشعر يسخر له احساسه ،
وعواطفه ، وخياله ، وكل مالمديه من معارف ، وطريقته فى نظم الشعر تصوره
صانعا لا مفطورا •

نظم فيرجيل أكبر وأخر ديوان له في الشعر ، وهو ملحمة *Enéide* في خاتل عشر سنوات تقريبا ، من سنة ٢٩ الى ١٩ قبل الميلاد ، وقبل أن يبدأ في النظم وضع هيكل الملحمة وكتبها نثرا ، ثم أخذ ينظم هذه الافكار ، وبعد عشر سنوات في سبيل النظم والمراجعة والتهديب والاصلاح لم يستطع أن يفرغ من الملحمة بالطريقة التي يطمئن اليها ويرضى عنها . ولهذا فقد رغب في احراقها قبل موته ولما تعذر عليه الحصول عليها أوصى بأن تحرق بعد موته ولولا حرص الامبراطور أوغسطس على هذه الملحمة ، وعنايته بها أو رفضه لتنفيذ وصية فيرجيل لحرم الادب اللاتيني من أجل أثر فيه . ولكن حينما جمعت نصوصها ونشرت كما هي دون زيادة ولا اصلاح وجد فيها ٥٧ بيتا من الشعر لم يكن قد انتهى من اكمالها وصوغها .

وكذلك الامر في ديوانيه الآخرين : إذ أنه نظم *Bucoliques* في المدة المحصورة بين سنة ٤٢ ، سنة ٣٧ قبل الميلاد ، مع أن الديوان جميعه لا يزيد عن ٨٣٠ بيتا من الشعر .

أما ديوانه الثاني *Georgiques* فقد نظمه في المدة بين سنة ٣٧ . ٣٠ قبل الميلاد وهو لا يحتوى على أكثر من ٢١٨٧ بيتا من الشعر .

المسألة اذن واضحة لا تحتاج الى تسميل أكثر ولا الى تحليل آخر لكي تثبت أن فيرجيل لم يكن مفطورا على قول الشعر يقوله دون تكلف وينظمه دون عناء ، وانما تعلم أسسه ، ومارسه ثم سخر نفسه في صنعة حتى برع فيها الى درجة لا يسمو اليها سواه ، وهذا في الواقع سر عظمته الادبية كما سنشرح ذلك بعد قليل .

لم يكن فيرجيل أيضا من ذوى العبقریات الخالقة فينعكس على نفسه يعيش بحسه أو يتجول في عالم من احساس المجتمع الذي يحيط به فتترامى اليه موضوعات الشعر وينتج بوحى من نفسه ، ولكنه كان واحدا من أولئك الشعراء الذين لا يعملون الا بوحى من غيرهم ، وشاهد ذلك أنه نظم ديوانه *Bucoliques* بارشاد *Pollion* فهو الذي وجهه الى هذا النوع

من الشعر ، وطلب اليه أن ينظم للشعب الرومانى ديوانا من الشعر على نمط
ديوان الشاعر اليونانى الصقلى Théocrite وكذلك ديوانه Géorgiques
كان بتوجيه ووحى من Maecenas وأما ماحمته Encide فكانت
تلبية لرغبة الامبراطور أوغسطس «١» .

لم يكن فيرجيل اذن متصفا بواحدة من هذه الصفات التى كثيرا
ما هيأت لاربابها من الشعراء سبيل الخلود الادبى ، ولكنه مع ذلك قد أخذ
لهذا السبيل عدة أخرى شق بها طريقه ، ووصل بواسطتها الى غايته : ذلك
أنه كما نراه نحن ، كان شاعرا فنانا . واذا وصفناه بالفنان فانما نعنى بذلك
أوسع معنى تتحمله كلمة الفن ، ومن هنا فقط كانت عظمته فى الشعر .

كان فيرجيل مرهف الحس ، جميل الذوق ، نبيل العاطفة ، انسانى
الادراك ، واسع الخيال ، قوى البيان وهو مع ذلك قد طبعت نفسه على
الحزن ، تستثيره المآسى : لانها قسم مشاع بين الكائنات ، ولا تهيج الافراح
لانها حظ بين الطبقات . وقد تمكنت منه كل هذه الصفات حتى استطاع
أن يسخرها طوعا فى خدمة فنه .

(١) يضاف الى هذا ان كثيرا من افكاره ، ومعانيه ومناظره الطبيعية التى
وضعها فى هذه الدواوين ، مأخوذ من الشعراء اليونانيين الذين قراهم واراد
تقليدهم ، ومصادره فى ذلك معروفة مشهورة .

انظر J. Humbert : Hist. و Fredric Plessis- la poésie latine p. 217

illustrée de la Lit. Latine, p. 178—196.